السورية، مما حمل خطر الوقوع في نزاع مسلح مع القوات الاميركية، أو الاسرائيلية. كما عانى الاتحاد السوفياتي، استراتيجياً، من آثار الخلاف الفلسطيني ـ السوري، وانشقاق م.ت.ف. و«فتح». غير ان السوفيات ربما خرجوا من الحرب في المحصلة كمستفيدين، ليس بفعلهم، بل نظراً الى ارتكاب الولايات المتحدة الاميركية واسرائيل حماقات عدة في لبنان، خلال فترة ١٩٨٢ ـ ١٩٨٣، ادت الى إظهار سوريا وحلفائها السوفيات في مظهر الصامدين والفاعلين. ويستخلص المؤلف ان سوريا وحدها، خلافاً لبقية الاطراف المحلية والخارجية قد حوّلت هزيمتها خلال الحرب الى مكسب واضح، بفضل مثابرتها ونجاح تحالفاتها اللبنانية، مما وضعها في موضع المتحدِّي لاميركا والقوة المسيطرة في لبنان، علماً بان سوريا اكتشفت، أيضاً، الصعوبات والمخاطر التي ترافق استلام زمام الامور في لبنان، وربما لن تفلت من عواقب تولي تلك المسؤولية.

بعد هذا التقديم، والذي يشمل تعليقاً حول دوافع الكتابة ومصادرها، وحول آلية الاتصالات الدبلوماسية خلال الحصار، ينتقل المؤلف الى الفصل الاول من بين ستة فصول يتشكل منها الكتاب.

يعالج الفصل الاول وضع م.ت.ف. في لبنان قبل حرب العام ١٩٨٢، وطبيعة علاقاتها اللبنانية. فينطلق الخالدي بالقول ان م.ت.ف. كانت معزولة، الى حد كبير، داخل الشارع اللبناني، عشية اندلاع الحرب. ويوضح ان مؤشر الرأي العام تقلب، بقوة، خلال الحصار، إذ عادت قوى لبنانية عديدة لتقف الى جانب م.ت.ف.، غير ان الامر الحاسم بالنسبة الى قدرة م.ت.ف. على الاختيار بين إطالة الصمود أو الاضطرار الى الهجرة، والذي قيَّد مدى استعداد مختلف القطاعات الحزبية الطائفية اللبنانية على المضي بالقتال في الجنوب، او داخل بيروت، هو سوء العلاقات قبل الحرب مباشرة، وخاصة في الاوساط التي تميزت، تاريخياً، بتأييدها للفلسطينيين. وقد انعكست هذه الحالة باشتباكات محلية عززَّت الفرقة ومنعت م.ت.ف. من تهيئة مواقع رئيسة، كمدينة صيدا، لتتحول الى حواجز منيعة في وجه الهجوم الاسرائيلي المرتقب.

ثم يسترجع الخالدي تطور الامور حتى وصلت الى هذا الحد، موضحاً ان الخلاف بدأ، اساساً، مع المؤسسة السياسية المارونية، التي رأت في م.ت.ف. حليفاً للمسلمين وللمحرومين في البلاد. وكان موقف أهل الجنوب، والطوائف الاسلامية عموماً، ايجابياً، بل ومعطاء تجاه العمل المسلح، والسياسي، الفلسطيني في البداية، غير ان الاثر المتراكم للعمليات العسكرية الاسرائيلية الموجهة ضد المدنيين، في أواخر السبعينات، تضافر مع الآثار بعيدة المدى لانخراط م.ت.ف. في الحياة السياسية اللبنانية الداخلية، مما وضعها في مآزق عدة واستنزفها، فيما أدى، أيضاً، الى ازعاج قوى سياسية وطبقية داخل طوائف عدة. ويلخص المؤلف هذه الحالة بتأكيد ان كل نمو لقوة م.ت.ف.، لبنانياً، كان يزيد من عدد اعدائها.

ان المسألة الجوهرية التي قوَّضت طبيعة العلاقة الحميمة بين م.ت.ف. وحلفائها الشعبيين والحزبيين في لبنان، في نظر المؤلف، تتمثل في تحوُّل المنظمة الى شبه دولة، ذات مؤسسات اجتماعية واقتصادية. فقد أثار هذا التحول الشعور بان المنظمة أصبحت «طائفة» لبنانية جديدة راضية باستمرار الازمة الداخلية اللبنانية. ومما زاد في الاستياء هو تمتع م.ت.ف. ومسؤوليها بنفوذ وقوة مالية، أساء البعض استخدامها. وحقيقة الوضع هي ان م.ت.ف.، في تحملها لمسؤوليات إدارية، كتوفير الغذاء والوقود والخدمات الطبية والكهربائية والهاتفية، خلال الحرب الاهلية (١٩٧٥ ـ ١٩٧٦) والحقبة التالية، ساهمت، من حيث لا تشاء، في ترسيخ الانطباع بانها تريد الحلول محل الدولة اللبنانية والحركة الوطنية، على حد سواء. لكن حين امتنعت هاتان الهيئتان، بسبب العجز أو الانقسام، عن تأمين تلك الخدمات، ظلت م.ت.ف. تجد نفسها تتلقى الشتائم، اذا ملأت الفراغ أم أخْلَته.

وازى هذا المسار في الواقع السياسي، والمؤسسي، للمنظمة نمو وتحول بارزان في الاداة العسكرية الفلسطينية، خصوصاً بمعيار التسليح والتنظيم. وكمنت دوافع عدة وراء هذا التحول، الذي لم يكن انتهى عشية حرب ١٩٨٢، أهمها اضطرار م.ت.ف.، أولاً، الى الدفاع عن الجماهير الفلسطينية واللبنانية